بيتُ القصيد: رعويّة الشعر

عبد الوهاب عزاوي*

من أجواء بيت القصيد في دمشق.

إنارةٌ خافتة، ووجوهٌ مألوفة، وسربُ زجاجات البيرة يحلّق في المكان بين ألواحٍ ملوّنة: إنه «بيتُ القصيد» في دمشق، في بار فندق «برج الفردوس،» ملجإ الشعراء ومحبّي الشعر كلَّ يوم اثنين. فسيفساءُ ثقافيّةٌ مدهشةٌ بتنوّع قِطَعها:

نساءٌ بمكياج خاصٍّ أحيانًا، وأخرياتٌ شارداتٌ في ماء الكلام. فيلمٌ جميلٌ عن الحياة تراه وأنت تمزُّ كأسَ العرق في الزاوية، والضجّةُ تغلّف جسدَكَ بخدرٍ لذيذٍ بين أصدقاءَ تحبّهم. متثاقفون لا يهتمّون بالشعر أو الثقافة، ومتشاعرون يسعوْن وراء علاقات الوسط الثقافيّ المتصنّعة في معظم الأحيان. شبّانٌ بقلوبٍ شرهةٍ إلى الفنّ، وأرواحٌ لم تكتمل قولبتُها.

شعراءُ ينزّون شعرًا مرّاً، وشعراءُ يغيبون بأجسادهم ويخيّمون بأرواحهم: ففي «بيت القصيد» تقليدٌ عريقٌ يتمثّل في قراءة مختاراتٍ شعريّة لشعراءَ عرب (رياض صالح حسين مثلاً) وغير عرب (يانيس ريتسوس مثلاً)، أحياءٍ وأمواتٍ قادرين على اختراق الحياة بقناديلِ قلوبهم؛ وكثيرًا ما تتمّ ترجماتٌ لشعراءَ لم نقرأْ لهم بالعربيّة من قبل.

يبدأ الليلُ بضوضاءَ محبَّبة، ووجوهٍ تتبادل التحيّاتِ وكؤوسَ العرق... والبغضَ والنفاقَ أحيانًا. الطاولات الصغيرة تتوزّع في البار الصغير كنمشٍ على صدر امرأة. يصل الشاعر لقمان ديركي، يقبّل الجميعَ، ثم يبدأ البرنامجَ بحضورٍ طاغٍ وبديهةٍ لافتة، يسرِّب روحَه بين الحاضرين بحيويّةٍ مُعْدية وبارتجالٍ يحوّلان المنبرَ مسرحًا صغيرًا يقْبل كلَّ الاحتمالات.

يتوالى الشعراء، وبينهم فتراتُ استراحة اصطُلح على تسميتها بـ «الضوضاء.» بعضُ الموجودين متطفّلٌ على الشعر، وآخر جاء من باب الفضول فقط، ولذلك يحدث تشويشٌ على الإلقاء أحيانًا. لكنْ، ما إنْ يُلقى نصٌّ قويٌّ حتى يطغى الصمتُ. أجل، هكذا يُمتحن الشعرُ في «بيت القصيد»: بميزان التفاعل والإنصات. والعيب الوحيد في ذلك أنّ الجوّ العامّ يعطي فرصةً أكبرَ للشعر الشفويّ من الشعر الرؤيويّ باعتبار الأول أنجحَ تواصلاً وأسلسَ تلقّيًا ـ وهذا ما أَضرَّ بالتفاعل مع تجارب بعض الشعراء.

غالبًا ما يحوي البرنامجُ مفاجأةً ما: فما من شاعرٍ خاصٍّ يمرّ بدمشق إلاّ ويَطْبع كفَّه على جدران «بيت القصيد.» شعراءُ عربٌ وأوروبيّون، من الدنمارك والسويد وفرنسا، قَدّم بعضُهم أساليبَ شعريّةً جديدةً على مستوى العلاقة بين الشعر والموسيقى. وقد يحْضر الموسيقيّون من دمشق أو العراق، فتغمرُ القاعةَ حميميّةٌ تحْضن الجميعَ عبر الغناء.

«بيت القصيد» ظاهرةٌ رعويّةٌ تحيا على أرواح محبّي الشعر، وجعلتْ من دمشق عاصمةً للشعر في سوريّة. فالعديد من شعراء سوريّة، من مختلف المراحل والاتجاهات الشعريّة، قرؤوا فيه... في حين فشلتْ مؤسّساتُ الدولة الضخمة، وعلى رأسها الأمانةُ العامةُ لاحتفاليّة «دمشق عاصمة للثقافة العربيّة،» بميزانيّتها الهائلة وسلطويّتها التقليديّة، في أن تقدّم ما يستحقّ الذكرَ للشعر السوريّ في العقد الماضي.

هذه الظاهرة المدنيّة، المستقلّة، النادرة في سوريّة، بدأتْ عامَها الثالث منذ أسابيع قليلة، بعد توقّفٍ مؤقّتٍ دام قرابةَ شهرين. وهي تستمرّ بعناد، رغم الصعوبات التي تواجهها، والتي اضطرّتها إلى تغيير مكان انعقادها سابقًا. ولعلّ أحدَ أسباب استمراريّتها اتفاقُ الروّاد ضمنًا على الابتعاد عن السياسة المباشرة، رغم انتماءاتهم الفكريّة المتباعدة، ليبقى الشعرُ وحده قادرًا على توحيد أرواحهم، وكسرِ المحرّمات أحيانًا.

دمشق

* ـ شاعر وطبيب سوريّ. وهذه الكلمة كُتبت احتفاءً بإعادة افتتاح «بيت القصيد» في دمشق.